

وَاجِبِنَا الْقَوْمِيَّ

للدكتور محمد فوزاد السيد

- لا يقتصر واجب الفرد نحو الوطن الذي يعيش فيه والأمة التي ينتمي إليها على إطاعته قانون وطنه ومبادرته بأداء ما يفرض عليه من الضرائب ، ولكنه يشمل كثيرا من الواجبات الأخرى التي لا تتل عن هذين شأننا في النهوض بوطنه وقومه . ولعل من أهم هذه الواجبات وأبعدها أنرا شعور الفرد بالواجب القومي وحرصه على أدائه .

والشعور بالواجب القومي هو شكل راق لإحدى الفرائز الطبيعية وهي ما يسميها علماء النفس غريزة الجماعة (herd instinct) وهي الغريزة التي تدفع الأفراد إلى تكوين جماعة تتحد في الرأي والميول والطباع ، ويتحد أفرادها في السعي لخير بعضهم بعضا ، ولخير الجماعة نفسها ، كما تتحد الجماعة معهم في العمل لما فيه خيرها وخير الأفراد .

وايست هذه الغريزة مقصورة على الإنسان وحده ، فاننا نشاهد مظاهرها في كثير من أنواع الحيوان ، وفي بعض الأحوال تبدو قوية منظمه تثير الدهش والإعجاب كما هي الحال في النمل والنحل والطيور الرحالة .

وقد يلوح أن من الغريب أن تظهر هذه الغريزة قوية في بعض أنواع الحيوان ، ضعيفة في بعض جماعات الإنسان . ولعل من المفيد هنا أن نحاول بحث هذه الغريزة بحثا مختصرا لتعرف أسباب ضعفها في هذه الجماعات حتى تتمكن معالجة ما قد يوجد من أسباب هذا الضعف في جماعتنا المصرية .

إذا حللنا هذه الغريزة تبين لنا أنها تقوم على ثلاثة أسس :

الأساس الأول : تماثل الأفراد أو تقاربهم إلى حد كبير في الرأي والميول والطباع والعادات ، فإن هذا شرط أساسي في تكوين الجماعة ، فاذا لم يتوافر لجماعة من الجماعات أسرع إليها التفكك والانحلال ، ولم تقو على مواجهة ما قد تتعرض له من الصدمات الشديدة . ومثال ذلك الجماعات التي ينقصها هذا التماثل أو التقارب بحكم ظروفها الجغرافية أو التاريخية ، أو لتعدد الطبقات فيها وتباينها تباينا شديدا مع عدم التعاون بينها ، كأن يساثر بعضها بالسلطة ، أو بالثروة أو بالثقافة ، أو بكل هذه الأشياء مما يدفع الطبقات المغبونة إلى التبرم بالمجتمع الذي تعيش فيه ، وعدم الإخلاص له . ومن أسباب نقص الاتفاق في الميول والعادات كثرة الأجانب في جماعة من الجماعات ، وبخاصة إذا اختلفت ميول هؤلاء الأجانب وعاداتهم اختلافا كبيرا عن عادات الجماعة وميولها ، أو تناقضت

معها ، أو كانوا هم المسيطرين على المظاهر الاجتماعية للحياة في المدن الهامة بسبب سيطرتهم على حياتها الاقتصادية والتجارية . ففي هذه الحالة يعتمد بعض ضعاف النفوس إلى تقليدكم بدون روية ولا تمحيص ، في حين يتمسك البعض الآخر بعادته وتقاليده فينشأ الاختلاف الهادم لكيان الجماعة .

لذلك نرى في كل الجماعات الناضجة تماثلا كبيرا في الأخلاق والصفات والميول بين جميع الطبقات : فهم يحيون أعيادهم القومية بطريقة واحدة أو طرق متشابهة ، لا يأنف الكبير منهم من الاندماج في أوساط الصغار من قومه يشاطرهم شعورهم ومرحهم ، وهم يحافظون على تقاليدهم القديمة حتى ما قد يكون فقد بعض جماله ورونقه ولم يعد ينسجم مع التطور الفكري والفني ؛ وذلك لأنه يذكرهم بمثل عليا اتبعها أجدادهم ، أو أحداث هامة في تاريخ نسابهم كما ترى أيضا في هذه الجماعات تعاوننا وتضامنا بين طبقاتها فلا يختص بعضها بنعم الحياة وعزها في حين لا يكاد غيرها يجد من الحاجيات الضرورية ما يمكنه من العيش .

الأساس الثاني : ويمكن تقسيمه إلى قسمين :

القسم الأول — وهو عمل الهيئة الحاكمة في الجماعة على النهوض بها وتوفير أسباب الطمأنينة لها في الداخل ، والعمل على اكتساب مركز ملائم لها بين الجماعات الأخرى في الخارج . وهذا يستدعي أن يتوافر لأعضاء هذه الهيئة الحاكمة كثير من الحكمة وبعد النظر لإعداد الخطط لما يعود على المجتمع بالخير الشامل لجميع أفرادها مع الأدب والسعي لتقوية الروابط بين فئات الجماعة وأفرادها حتى يشعروا بأنهم سواء في التمتع بمزايا هذا المجتمع وحتى لا تقوم بينهم أسباب الفيرة والتحاسد .

القسم الثاني — هو عمل الجماعة لصالح الفرد . وهو كالتقسيم الأول يؤدي إلى تعلق الفرد بباقي الجماعة ويشجعه على التصحية بجميع ما يمكنه في سبيل خير الجماعة .

الأساس الثالث : ويمكن تقسيمه أيضا إلى قسمين :

القسم الأول — عمل الأفراد لصالح بعضهم بعضا ، وهو من العوامل التي تقوى صلات المحبة والتعاون والوئام بين الأفراد ، وتساعد القائمين بأمر هذه الجماعة على الانصراف إلى تدبير أمورها الهامة . وإن أبسط مظاهره حسن معاملة الأفراد بعضهم بعضا ، بأن تقوم هذه المعاملة على الأخوة والعطف والتعاون فلا يكون أساسها الغبن والخداع والأناية مما يؤدي إلى التنافر والبغضاء وهدم نظام الجماعة .

القسم الثاني — عمل الفرد لصالح الجماعة ، ومن مظاهره تطوع الفرد للدفاع عن وطنه ، واشتراكه في الجماعات التي تؤلف للنهوض بالجماعة من الوجهة الصحية أو الثقافية أو الاجتماعية الخ ، وبذله من ماله ما يساعد على رفق الجماعة وخيرها .

وإنا نرى من تحليل هذه الغريزة — غريزة الجماعة — أن ما قامت عليه من الأسس يشد بعصه بعضاً ، فإذا ضعف واحد أو أكثر من هذه الأسس ضعف الباقي. فإذا قصرت الهيئة الحاكمة في القيام بواجبها بخير الجماعة ، أو اختصت فريقاً منهم دون الآخرين بصايتها ضعف عند الأفراد — أو عند فريق كبير منهم — الشعور بواجبهم القومي وانصرفوا عن تأديته . وإذا قصر الأفراد في القيام بواجبهم نحو الجماعة ، أو نحو بعضهم البعض ، ضعفت الجماعة وتفككت روابطها ، وهكذا .

نخلص من هذا إلى أن الأساس الذي تقوم عليه نهضة أمة من الأمم هو شعور حكومتها وجماعاتها وأفرادها بالواجب القومي شعوراً قوياً ، والمساعدة لتأدية هذا الواجب في إخلاص وغيرة اقتناعاً بأن الفرد للجماعة والجماعة للفرد .

فما مبلغ شعور أفراد مجتمعنا المصرى بواجبهم القومي ، وما مقدار حرصهم على أدائه ؟ هذا ما أودّ تبياناً في هذا المقال حتى يتبين مدى ما في شعورنا بهذا الواجب من ضعف ، وما في تأديتنا له من قصور ، وحتى يراجع كل منا نفسه فيعمل على استكمال ما فيه من نقص ، وحتى يلمس القاعدة وذوو الرأي مواطن الضعف فيعملوا في تفكير وروية على إيجاد العلاج للناجع لها .

تشمل تأدية الواجب القومي نواحي كثيرة من جهود الأفراد ، وجهود الجمعيات الصغيرة التي تتألف داخل الجماعة . وهذه الجهود إما أن يقصد بها مباشرة إلى أداء الواجب القومي كتكوين الجماعات المختلفة لأغراض قومية ، وإما أن تؤدي بطريقة غير مباشرة إلى أداء ذلك الواجب كالموظف الذي يؤدي عمل وظيفته بأمانة وإخلاص .

إن كثرة الشعب المصرى ، وبخاصة الفلاح والعامل ، تتردى في هاوية الفقر والجهل والمرض ، فهل قت أيها المصرى الذى آتاك الله بسطة في الجاه ، أو سعة في الرزق ، أو رجاحة في التفكير — هل قت بما يفرضه عليك واجبك القومى نحو هؤلاء المستضعفين الجائعين ؟ هل بذلت من جاهك أو من مالك أو من عمالك ما يشع فقيراً أو يشفى مريضاً أو يرشد جاهلاً؟ هل أنت عضو في إحدى الجماعات التي تعمل لبعض هذه الأغراض النبيلة؟ هل تناولت بقلمك أو لسانك على تشخيص الداء ووصف الدواء ؟

ثم هل تبذل ، أيها المصرى ، في القيام بواجباتك الخاصة ما يجب أن تبذله من أمانة وإخلاص فتكون بذلك قد قت بواجب آخر هو واجبك القومى الذى هو دين على الآباء والأمهات ، ودين على الأزواج ، ودين على الشبان والشابات ، ودين على الرئيس والمرئوس ودين على الصحفي والصانع والعامل وغيرهم من أصحاب المهن الأخرى .

فأنت أيها الأب! هل ترى أبناءك تربية تهوهم لأن ينشأوا رجالا عاملين؟ هل تفهمهم معنى الوطنية المصرية وما تقتضيه من واجبات نحو مصر؟ هل تنشئهم على الجلد والنشاط وتعودهم التفكير السليم وحب الاطلاع والترود من الثقافة العامة؟ هل تربهم على الاعتماد على النفس والاعتزاز بالكرامة في غير غرور؟ هل تجلس إليهم بين آن وآخر تحادثهم ويحدثونك فتفهم بذلك أخلاقهم وطباعهم واستعدادهم فتشجع منها الحسن وتصلح الفاسد؟ هل تبت فيه روح الجلد والعمل المنتج والانصراف عن العيب واللغو؟ هل تربهم على الرجولة والشهامة والتمسك بالدين والفضيلة؟ هل تقدم لهم من نفسك مثلا صالحا يقتدون به؟ وهل تنشئ بناتك على أن يكن أمثلة حسنة للسيدة المصرية الحديثة؟ هل تثقفهن وتهذبن بما يلائم أنوثتهن وبما يجعل منهن عوننا لأزواجهن لا عبئا ثقيلا على كواهلهم؟

وأنت أيها الأم! هل تنشئين أطفالك على الطباع الحسنة والأخلاق الفاضلة ولا تلامين رؤوسهم بالخزعلات والحرافات؟ هل تراقبين أولادك وتدلين أباهم على ما قد تامسين في سلوكهم من شذوذ أو اتجاه سيء؟ وهل أنت ممسكة بزمام بناتك أثناء تطورهن الجنسى، شديدة الرقابة عليهن، موجبة لمن توجيهها صالحا؟ هل يشاهدن فيك المثل الصالح للزوجة والأم وربة البيت؟ وهل تسعين لأن تنال كل منهن نصيبا كافيا من الثقافة النسوية؟ أم أنت لاهية عن كل هذا بالتراور والتبرج وتحين الفرص لإقامة الحفلات التي قد لا تتفق مع دينك وقوميتك؟

وأنت أيها الزوج! هل تهينين لزوجك جوا منزليا صالحا هادئا وتشجعيته على أداء واجبه القومي؟ أم أنت ترهقينه بأشراكك إياه في أمورك المنزلية التي ليست من شأنه وبمطالبك المأهلية التي لا تقف عند حد معقول؟

وأنت أيها الزوج هل تحترم شخصية زوجك وكرامتها وتشجعها على القيام بواجبها؟ أم أنت تعامنها في صلف وأنانية فتقتل شخصيتها لتستأثر أنت بكل السلطة؟

وأنت أيها الشاب المصرى! هل تعلم أنك عدة الحاضر لوطنك وذخيرة المستقبل؟ وهل تعلم أن وطك محتاج لنشاطك الكامل وجهدك المتصل، وتضحيتك بكثير من هوك وفراغك؟ هل ترؤد نفسك بالعمدة الكافية من الصحة والخلق والثقافة؟ أم أنت في شغل عن كل ذلك بالانصراف إلى مذاذاتك والافتداء برفاق السوء، فاذا هوت فبأعراض الأسر وكرامتها، وإذا قرأت فالصحف البذيئة والقصص الرخيصة؟

وأنت أيها الفتاة المصرية! هل تعدين نفسك لتكوني زوجا وأما صالحة، ولتكوني زينة بجمعنا بخلقك وثقاوك وتفكيرك، فاذا تكلمت ففي الموضوعات الهامة، وإذا تحدثت ففي لباقة وكياسة؟ أم أنت لا تحسنين إلا التحدث في نافة الأمور في غير دراية

أو معرفة ؟ هل أنت مصرية في تفكيرك وفي تقاليدك ؟ أم أنت تمدن هذا عارا وتأنرا دون تفكير أو بحث ؟ وهل تفرقين بين الصالح وغيره فيما تقتبس من الفتاة الغربية أم أنت تقلديها في حق وتهور ؟

وأنت أيها العامل ! هل تسمى جهدك لإتقان مهنتك ؟ وهل تسلك طريق الشرف في منافستك زملاءك ومعاملتك عملاءك ؟

وأنت أيها الموظف ! هل تبذل في عمالك ما يجب عليك من الدقة والنشاط والإخلاص ؟ أم أن كل ما يعينك هو إرضاء النظم واللوائح إرضاء شكليا ؟ وهل إذا كانت طبيعة عمالك تجعلك على اتصال مباشر بالشعب توسع له صدرك وتخلص في قضاء مصالحه ؟ أم أنت تعامله بكبرياء وعظمة حيا في تضخم سلطتك وتعظيم سطوتك ؟ وهل تتعاون مع زملائك لصالح العمل ؟ أم أنت تقيم في طريقهم المراقيل وتدس لهم عند الرؤساء لتسأل الخطوة دونهم ؟

وأنت أيها الموظف الكبير ! هل تقف كل جهودك على النهوض بالعمل الذي عهدت إليك رئاسته ؟ وهل تشرف على كل ما دق أو جل من المسائل ؟ وهل تضرب المثل الصالح لمروسيك في الإخلاص للعمل والمشاركة عليه والمحافظة على المواعيد ؟ وهل تعدل بينهم وترشع فيهم روح النشاط والجد والابتكار ؟ وهل ترعى كرامتهم وتحترم شعورهم ؟ أم أنت تعاملهم بصلف وتفسق قدرى رغباتهم وأفكارهم، وتبسط بهم كلما سنحت لك الفرصة فنقتل فيهم نشاطهم وكرامتهم وشخصياتهم ؟

وأنت أيها الصحفي ! هل تقدر شرف مهنتك وما لها من تأثير مباشر سريع في توجيه فريق كبير من الشعب فلا تنشر إلا ما يوجهه التوجيه الصحيح الذي يفيد البلاد ؟ وهل أنت شجاع في الحق لا تبالي أن تقول للحسن أحسن وللسيئ أسأت ؟ أم أنت لا تهتم إلا بمنفعتك المادية وبرواج صحيفتك ؟

هذا ما وسعه المقام من بعض نواحي جهود الفرد التي تتصل بطريق غير مباشر بالواجب القومي ، والله أسأل أن يوفق كلا منا لأداء واجبه نحو نفسه وأسرته وبنى وطنه جميعا .

دكتور

محمد قواد السيد

طبيب يمان طره